بسم الله الرحمن الرحيم

العائد من الموت

بقلم الكاتب والمفكر الاسلامي..

محمد أبو النور



لا تخَـافوا ..

واطمئنوا ..لا داعىَ للقلق..

إنه مجرد انتقال .. وبعده سوف تلقىَ الأحِبة .. سوف تكمل رِحلة وجودك .. ولكن بلا تعب

ولا مرض ..ولا مُنغص.. ولا حزن ..

ولا خوفٌ من أي شيء .. إِنه عالم جديد .. بهِيج ..

فيه مَسـراتٌ لن تنتهي ..

وبريقٌ لا يخبو أبداً..

أبو النور

أنت شقي أم سعيد

هل وجودك في الحياة نعمة أم نقمة ..هل الأشياء التي تسعدك أكثر أم الأشياء التي تحزنك .. وهل أنت من داخلك روح سعيدة مسرورة برغم كل الهموم التي تحملها..أم أنت روح تعيسة تشعر بالاختناق والكآبة أغلب الأوقات..

هذه اليد التي أتت بك من عالم العدم ودفعتك إلي عالم الوجود ،هل كانت تريد لك النعيم أم البؤس والشقاء..وهل تشكر تلك اليد أو تلومها من داخلك..أرجو أن لا تتعجل الإجابة حتى تقرأ هذا الكتاب..

إن النظرة المجملة لوجود الإنسان من بعيد تدل علي أن الله أوجد الإنسان لينعم عليه دائما بالسعادة والنعيم ،والنعم التي لن تنتهي أبدا..فإذا قال العقل ..فما بال المرض والمحن والبلايا التي تملأ ما بين دفتي حياة الإنسان ..

قلنا له هذه هي النظرة الجزئية لمواقف وفترات زمنية بعينها وليست نظرة شمولية لكل وجود هذا الكائن المسمي إنسان..فالإنسان غالبا ينكر ما هو غيب عنه ،ويظن أنه ليست هناك حقيقة مطلقة سوي ما هو فيه وعندما يكون في الألم يعتقد أن كل الوجود آلام ومتاعب..فالطفل يري العالم بعين الطفولة ويظن أن كل الناس يرون العالم بنفس عينه البريئة الساذجة ..

ومن كان في مرحلة البلاء لا يري الوجود إلا بلاءً محضاً ويشعر كأن السماء تنطبق علي صدره فتكتم أنفاسه وأن الأرض برغم اتساعها ضيقة جدا تعتصره وتطحن أضلاعه،ولا يمكن أن يتصور أن في الدنيا لذات ونعيم ومتع يعيشها الآخرون ،وأنه هو أيضا سوف تأتي عليه مرحلة مقبلة ينجو فيها من البلاء ويحيا حياة السعادة .. كذلك هذا الثري المتخم صاحب الكرش السمين من كثرة الطعام ،يعامل الناس علي أنهم مثله شبعانين مرفهين ،ويظن أن وجود أناس يموتون جوعا أو يلتقطون طعامهم من صناديق القمامة هو أمر محال ،وإن وُجد فهو نوع نادر من البشر ولكن الأغلبية مثله متخمين ..والنملة الصغيرة تعتقد أن جحرها هو الوجود بأكلمه وأن سرب النمل هو المخلوق الأكبر ،حتى تطل برأسها خارج الجحر لتجد المفاجأة أنها ليست سوي كائن صغير جدا في ملك متسع عظيم الاتساع .. والخطأ الأكبر أن تحصر الحياة كلها في المرحلة الآنية فقط ..فالحي يظن أنه ليست هناك حياة بعد الموت ،وأن بعد خروج الروح لا شيء سوي

العدم والفناء..فمن مات سيشبع موت ،ومن دخل الحفرة فلن يخرج منها وقد انتهي للأبد ..ونهاية الموضوع هو الحفرة ثم لا شيء ..

وهذا يري أن الموت عدم محض ،ومن ثم فإن الحياة نفسها عبث بلا قيمة ولا هدف ،وما هي إلا أيام ستنتهي سريعا لتقذف به في الحفرة وتسلمه للدود ليكون وجبة شهية في بطون الزواحف والصراصير ونمل المقابر .. وهؤلاء أتعس الناس داخليا..يحتقرون الحياة ويكرهون الموت،ويرون أنهم ماضون في طريق مظلم رغما عنهم بلا غاية ولا أمل .. وكثير منهم يقدم علي الانتحار من فرط اليأس والكآبة التي لا يجد منها مخرجا أبدا ..وصنف آخر يعتقد أن بعد الموت حياة أخرى ولكنه يكره الموت لأنه سينتزعه من متعته وحياته ونعيمه ليسلمه إلي حساب وعذاب ووجود لا يضمن فيه السعادة ..

وصنف آخر يعتقد أيضا بالحياة الآخرة ،ولكنه يكره الموت لما فيه من شدة مرعبة، وألم ،وسكرات ،تهتز لها الجبال ،ومعاناة لا يقوي عليها أحد ..

فهذه الأصناف المختلفة من البشر تتفق كلها علي شيء واحد وهو ..كراهية الموت.. والحقيقة أن كل الناس يكرهون الموت ماعدا فئة قليلة وهذه الفئة هم .. أولياء الله .. لأن هؤلاء فقط هم من يتمنون الموت ويشتاقون إليه لأن لديهم حقيقة قد انكشفت في قلوبهم وسوف نذكر هذه الحقيقة في حينها إن شاء الله..

ولكن الله سبحانه يشير إلي ذلك المعني قائلا ..

{ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }الجمعة-6 وهذا الصنف القليل يشمل طائفة الأنبياء،والأولياء ،والصالحين ،والصديقين ،وكل من والي الله بالمحبة والإخلاص ،وأما بقية البشر فكراهية الموت صفة لازمة لهم ،وما يجعلك تطمئن وتدرك يقينا أن الله خلقك للسعادة ،وللنعمة والنعيم الإلهي برغم كل ما تلاقيه من أحزان وأهوال وأمراض وصعاب في حياتك .. هو أن تنظر معى الآن إلي وجود الإنسان تلك النظرة الشمولية بعين الأزلية القديمة المطلقة .. فأول شيء يجب أن تعلمه أن الوجود في حد ذاته نعمة ،ولذلك يكره الإنسان الموت ويخافه لأنه يظن فيه أنه سيعدمه وسيسوقه إلي الفناء ..فلذلك هو يخافه ويكرهه ويفر منه بطبعه الغريزي ..

{ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ } الجمعة-6

فالإنسان يرتعد من تلك اللحظة التي يفني فيها ويتشبث بنور الحياة بكل قوته مما يدل علي أن الغريزة تري أن الوجود نعمة وأن العدم والمحض شيء مخيف مرعب لا تريده ..

فلما كان الوجود في حد ذاته نعمة .. كان هو أول ما أنعم به الخالق علي ذات الإنسان ..ولست أتحدث هنا عن لحظة الميلاد..فالميلاد شيء آخر تماما غير الإيجاد .. فإن وجودك كان قبل ميلادك ..

ولكن متى كانت لحظة وجودك.. ومتى أشرقت شمسك لأول مرة في سماء العماء..وكيف حدث هذا الوجود وبأي كيفية وصورة .. هذا هو ما سنبينه بمعونة من الله وحده ..

***

بدايتك ليست ميلادك

اعلم أن ذات الإنسان في البداية كانت عدما محضا..مثلها مثل باقي الذوات التي لم تكن قد خلقت بعد في زمن الأزلية القديم ..عندما كان الله ولا شيء معه ..ففي هذه المرحلة لم يكن الإنسان روح ولا جسد ..

{هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا } الإنسان-1

وهنا يجب أن ننبه علي سر عميق دقيق يدفعك إلي بحر لا ساحل له بأن نطرح سؤالا هاما ..وهو أن هذه الذوات المعدمة الغير موجودة في ذلك الحين هل كانت بالنسبة لله عدما مخفيا..هل كانت غير معلومة ؟

بالقطع نقول لا حشا لله .. فإن الله يعلم الغيب المطلق ..والغير موجود بالنسبة له كأنه موجود ..

والغيب بالنسبة له مشهود وحاضر..وهو يعلم الغير معلوم..ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون ..

فهذه الذوات ..المعدمة.. كانت في علمه وبصره سبحانه كأنها موجودة ظاهرة مرئية بكل جزئياتها وتفاصيلها وما سيحدث لها ..

وقد أتي وقت إلهي شاءته المشيئة العليا ووقتته الإرادة الربانية بعد هذا الحين العدمي..بأن شاء الله أن بزغت أول نعمة إلهية منه علي هذه الذوات المعدمة وهي نعمة الإيجاد ،وسواء كان ذلك بأن هذه الذوات المعدمة بالنسبة لنا الموجودة بالنسبة لخالقها توسلت إلي الله وتذللت له راجية منه الإنعام عليها بنعمة الإيجاد،أو كان الأمر محض تفضل وإكرام وإنعام من الخالق دون طلب وسؤال من تلك الذوات .. فإن الله أفاض من كرمه وجوده بأن أخرج هذه الذوات المعدمة من ظلمة العدم إلي نور الوجود، وجعل لهم كيانا حقيقيا موجودا بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ..

وهذا الكيان ليس هو الجسد ..فهنا أني أتكلم عن ما قبل خلق الجسد بآلاف أو ملايين السنين فإن الجسد في حديثنا هنا وليد الأمس "ابن امبارح" وإنما حديثنا عن هذه الذات التي سمها إن شئت .. الروح ..

أو.. النفس .. أو.. الذات .. أو.. السر ..{ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } طه-7، أو .. الذر .. وهو عالم الذر قبل الميلاد الذي أخبرنا الله عنه بأنه الموقف الذي جمع الله فيه جميع ذواتنا نحن البشر..

كل الآدميين منذ بدء الخليقة حتى آخر مولود سيولد علي سطح الأرض .. كل الناس حتى أنا وأنت ..كلنا كنا موجودين في هذا المشهد الأزلي القديم قبل ميلادنا،وقبل وجودنا علي هذا الكوكب ..حيث تجلي لنا الله

الخالق العظيم ،وخاطبنا بذاته ، وأشهدنا علي أنفسنا .. ومسح الله علي ظهر آدم فاستخرج منه جميع ذريته البشرية بل واستخرجهم أحياء..ذواتا حية بين يديه حيث يقول سبحانه ..

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا.. أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ } الأعراف.. 172- 173

هذه المرحلة الأولي التي كنا فيها ذرات بين يدي خالقها،لا جسد ،ولا روح منفوخة ،سوي تلك المسحة على ظهر آدم وجسده المتمدد بين الملائكة ..في هذه الحقبة كنا ذواتا لا تعرف سوي شهود ربها ،وسماع صوته ..يفاض علينا من أنواره الأزلية .. قد نكون مكثنا في تلك الحقبة ألاف السنين ،وربما ملايين السنين ..لا أحد يعلم سوي الله..وقد تكون هناك أحداث ومواقف جرت لنا ،ولكنها سر مطموس في هذا الغيب السحيق ما الذي حدث لنا عند موقف الإشهاد الإلهي وكيف كان النداء الذي أتانا "ألست بربكم" وبأي سمع قد سمعنا هذا النداء ونحن بعد لم يخلق لنا أذن .. وبأي لسان قد أجبنا .. قالوا بلي شهدنا .. ونحن بعد لم تخلق لنا ألسنة ..وتري كم استغرق هذا المشهد ..هل كان لحظة..أو كان يوما..

أو كان يوما من أيام ربنا بألف سنة ..{ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } الحج-4

أم هل كان مليون عام ..أم كان عمرا آخر خارجا عن الحسابات الزمنية التي نعرفها الآن .. وتري من الذي كان يقف بجوارك في هذا المشهد ..من الذي كان عن يمينك ومن الذي كان عن شمالك ،وهل شاهدك أبوك آدم حينها .. وهل رأيته أنت أيضا ..أم أن تلك اللحظة كانت لا تتسع سوي للشهود الإلهي والإجابة علي هذا السؤال الأزلي "ألست بربكم " ..

أسئلة كثيرة ..كثيرة.. يركع العقل أمامها ويعلن عجزه عن الإجابة ولا تسعف الذاكرة في هذا الأمر.... فكيف يتذكر الإنسان مشهدا حدث له منذ ملايين السنين قبل أن يولد ..وهو الذي ينسي ما أكل بالأمس القريب .. والعجيب أن الله قد أخبرنا في هذا المشهد أن الإنسان سوف ينسي ويغفل وأن حجته التي سوف يتذرع بها دائما أنه لا يتذكر شيئا .. يقول سبحانه ..{قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا.. أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الاعراف-172، فالعقل دائما في حجاب الغفلة ..والنفس في سجن الشهوات ..والجسد في معتقل المتع واللذات والآلام..ولكن الروح تحوم حول هذا المشهد وتحسس بأنامل الفطرة ذلك الماضي السحيق..

وتستشعر بفطرتها أنه بالفعل كان هناك لقاء ..وأن هذا الحضور الإلهي الموجود بقوة في القلوب محال أن يكون من فراغ .. بالفعل كانت هناك قديما لحظة شهود تركت في نفوس البشر معرفة بهذا الإله الخالق العظيم ..

هذا الإحساس الذي لا يستطيع آدمي إنكاره حتى إن كان ملحدا لا يؤمن بوجود الله .. ولكنه مع ذلك يستشعر هذا الإحساس ،وهو الذي يجعله يضع من وقت لأخر احتمال وجود هذا الإله ..

واعلم أنه علي قدر هذا الشهود كان نصيب كل إنسان من الإيمان ..فمن أشهده الله أكثر كان إيمانه أكثر.. ومن تواري في المشهد ،وكان شهوده ضعيفا كان إيمانه ضعيفا أو منعدما ..

ولذلك كان إعلان الإيمان بكلمة " أشهد " فمن يدخل في الإسلام يتم دخوله فيه بالشهادتين وهو أن يقول " أشهد أن لا إله إلا الله ..وأشهد أن محمدا رسول الله " وتأمل هنا كلمة "أشهد" وليس أعترف أو أقر مثلا..

فإن في هذه الكلمة سر وحكمة خفية ،وذلك لأن الشهود يكون ناتجا عن "المشاهدة" وأما الاعتراف أو الإقرار فقد يكون ناتجا عن الأدلة العقلية أو الاستنتاجات النظرية والتي تصيب وتخطأ ..وفرق هائل بين هذا وذاك .. فمن شاهد النبي غير من استنتج وجوده من خلال السماع والقراءات..وهذا الشهود كان قديما في الأصل ،فمن كان مؤمنا فقد اختاره الله من الأزل ليكون مؤمنا .. فكل شيء مقسم منذ القدم ولا جديد إلا وله قديم قد بني عليه ..وقد كان أحد العارفين إذا سئل .. منذ متي أنت مؤمن ؟ أجاب قائلا .. منذ رقصت الأرواح في الأشباح وقالت " بلي "

***

اجتماعك بأبيك آدم
ومشاهد من عالم الأزل

ومما يدل علي أن هذا المشهد كان عمرا طويلا ولم يكن خطفة من الزمن أن هناك روايات تطالعنا بأن آدم قد رأي ابنه داود الذي سيأتي بعده بآلاف السنين في هذا المشهد وكلاهما في هذه اللحظة عبارة عن ذرات في عالم الذر..حيث يقول النبي ﷺ..

(إن الله عندما مسح علي ظهر آدم ..قبض سبحانه كلتا يديه وقال لآدم ويداهُ عزوجل مَقبوضتانِ.. اختَرْ أيَّهما شئتَ .. فقالَ آدم.. اختَرتُ يمينَ ربِّي وَكِلتا يدي ربِّي يمينٌ مبارَكَةٌ ثمَّ بسطَها فإذا فيها آدمُ وذرِّيَّتُهُ، فقالَ.. أي ربِّ، ما هؤلاءِ؟ فقالَ.. هؤلاءِ ذرِّيَّتُكَ، فإذا كلُّ إنسانٍ مَكْتوبٌ عُمرُهُ بينَ عينيهِ، فإذا فيهم رجلٌ من أضوئِهِم.. يعني من أكثرهم نورا ..قالَ.. يا ربِّ مَن هذا؟

قالَ عزوجل.. هذا ابنُكَ داودُ قد كتبتُ لَهُ عُمُرَ أربعينَ سنةً..

قالَ آدم.. يا ربِّ زِدهُ في عمرِهِ.. قالَ.. ذاكَ الَّذي كُتِبَ لَهُ..

قالَ.. أي ربِّ، فإنِّي قَد جعَلتُ لَهُ من عُمُري ستِّينَ سنةً.. قالَ.. أنتَ وذاكَ.. قالَ.. ثمَّ أُسْكِنَ آدم الجنَّةَ ما شاءَ اللهُ، ثمَّ أُهْبِطَ منها، فَكانَ آدمُ يعدُّ لنَفسِهِ، قالَ.. فأتاهُ ملَكُ الموتِ، فقالَ لَهُ آدمُ.. قد عجَّلتَ، قَد كتبَ لي ألفُ سنةٍ ..

قالَ.. بلَى ولَكِنَّكَ جعَلتَ لابنِكِ داودَ ستِّينَ سَنةً، فجَحدَ آدم فجَحدَتْ ذرِّيَّتُهُ، ونسيَ آدم فنَسيَتْ ذرِّيَّتُهُ.. قالَ.. فمِن يومئذٍ أُمِرَ بالكتابِ والشُّهودِ) 1

وفي حديث آخر للنبي ﷺ يتحدث فيه عن نفس القضية وهى مشاهدة أبونا آدم لأبناءه واطلاعه علي أعمارهم وأنوارهم ومصائرهم في عالم الذر القديم ولقاءه بابنه داود وأنه وهب له سنوات من عمره ..

يقول النبي ﷺ (إن الله عز وجل لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو من ذراري إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلا يزهر، فقال: أي رب من هذا؟

قال: هذا ابنك داود.. قال: أي رب كم عمره؟

قال: ستون عاما، قال رب: زد في عمره..قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام..

1- رواه الترمذي والبزار وابن خزيمة وهو حديث حسن صحيح

فزاده أربعين عاما، فكتب الله عز وجل عليه بذلك كتابا وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم وأتته الملائكة لتقبضه قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عاما.. فقيل إنك قد وهبتها لابنك داود قال: ما فعلت، وأبرز الله عز وجل عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة) 1.

فلو كان هذا المشهد القديم مجرد خطفة من الزمن لما اتسع لأن يري أحد أحدا ،ولا لأن يحدث هذا الحوار بين آدم والملائكة عن داود ،لأن الصولة الإلهية التي تجلت عليه سوف تقتضي أن تستغرق الكل ،وتفني أي ذات عن شعورها بأي شيء آخر ..

ويروي أيضا أن الذوات قد انطلقت مجيبة بكلمة .. بلي .. كل حسب درجة شهوده ونصيبه من النور الأزلي الذي سطع عليهم وأن ذات النبي محمد ﷺ كانت أقوي روح أجابت في هذا المشهد ولذلك فضله الله علي الأولين والآخرين .. ولذلك فإن العارفين بالله يكون حنينهم دوما إلي هذا المشهد الأزلي وطوافهم حوله ..

وهناك من الأولياء من يكشف الله عن بصيرته فيذكره بهذا المشهد وببعض تفاصيله ..فيقول سيدي عبد القادر الجيلاني في قصيدته..

على الدرة البيضاء كان اجتماعنا وفي قاب قوسين اجتماع الأحبة

والدرة البيضاء هنا رمز إلي عالم الذر الأول الذي كان فيه اجتماع الأرواح ..

ويفصح أكثر سيدي ابراهيم الدسوقي حيث يحكى عن مكاشفته لهذا المشهد قائلا ..

-قد كنت أنا وأولياء الله أشياخا بين يدى القديم الأزلي وبين يدي رسول الله ﷺ وكان اجتماعنا على الدرة البيضاء فأمرنى رسول الله أن أخلع على جميع الأولياء بيدى فخلعت عليهم وقال رسول الله ﷺ..ياإبراهيم أنت نقيب عليهم وكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخى عبد القادر خلفي وابن الرفاعي خلف عبد القادر ثم أنشد قائلا ..

نعم نشأتي في الحب من قبل آدم *** وسري في الأكوان من قبل نشأتي ..
على الدرة البيضاء كان اجتماعنا *** وفي قاب قوسين اجتماع الأحبة ..

1-رواه أحمد عن ابن عباس والترمذي، وصححه عن أبي هريرة.. ورواه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، وقال الحاكم.. صحيح على شرط مسلم..

وكل ولـى للإلـه مـؤيـــد *** يشـــــهد أنى ثابت في ولايتـــي ..

أنا كنت في العلياء مع نور أحمد *** على الدرة البيضاء في الأزل خلوتي ..

وعندما يشير العارف بالله ابراهيم الدسوقي إلى نشأته في الحب التي من قبل آدم فانه لا يقصد هذه النشأة الجسدية وإنما هو يشير إلى النشأة التي كانت في عالم الذر..والتي كان جسد آدم فيها بين الماء والطين..

وحقيقته مجرد ذرة حية وهي النشأة التي نقصدها في حديثنا الآن،ومن هنا فإن من أنكر عليه كلامه ،أنكره لأنه ظن أن حديثه عن نشأة الأجساد الحالية والتي من المعلوم فيها أن آدم هو أبو البشر فلم يدرك ما يرمي إليه العارف ولم يفهم إشارته ..

فلو فهمت الإشارة لعلمت أنك أنت أيضا كان لك وجودا حقيقيا في هذا العالم الأزلي وأنك قد اجتمعت بأبيك آدم في مشهد ..ألست بربكم ..بنص القرءان فاللقاء والتعارف كان قديما جدا ..فكل شيخ مربي قد اجتمع بتلاميذه الذين قسم الله لهم أنهم سيكونون معه علي تلك الدرة البيضاء في عالم الذر..وما من صديق إلا وقد عرف صديقه هناك أولا..وما من زوج إلا وقد سكن إلى زوجته التي خلقت من نفسه من قبل أن يأتوا إلي الدنيا..وكل ما هو هنا مبني علي ما كان هناك..وإن في ذلك سر القدر..وتفسير إحساسك بالمواقف المتكررة ..

وبعد أن قضت ذاتك أزمنة سحيقة في هذه المرحلة الأزلية المسماة بـ"عالم الذر" وارتويت فيها من أنوار غيبية وتغذية روحانية في الملأ الأعلي ،شعرت الذات الإنسانية بأنه قد آن الأوان لها أن تنتقل لطور آخر..

وأن المكوث في عالم الذر للأبد يبدو محالا،وأنه لابد لكل ذات أن ترحل ..وبالطبع قد اعتري الإنسان هذا الشعور بالخوف من المجهول في تلك المرحلة التي سيقدم عليها وشعر بأنه علي وشك الفناء والهلاك ،فهو لا يألف سوي عالم الذر وجمال الشهود ،ولكن أمر الله كان قدرا مقدورا ..

وعلي أي حال فإن تفاصيل هذا المشهد وتلك المرحلة الطويلة من وجود الإنسان كانت غيبا سحيقا .. قد نسيها الإنسان وغفل عنها تماما بعد أن دخل في المرحلة الثانية وهى مرحلة الماء المهين في ظهور الآباء والأجداد .. وهي التي سنرحل إليها الآن بعون من الله وفضله ..

***

تفصيل حياتك
في ظهر أبيك

أثبت العلم الحديث أن كل إنسان هو في الأصل حيوان منوي حي نشط قد تم قذفه بواسطة الأب عبر النطفة المنوية داخل رحم الأم ،وأن هذا الحيوان المنوي الحي هو الذي قام بتلقيح البويضة في الأم ومنه نشأ الجنين..وتلك الحقيقة العلمية يشير لها القرءان أكثر من مرة منذ ما يزيد علي ألف سنة وأربعة قرون قائلا..

{ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ} المرسلات-20

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} الطارق5-7

ويذكر الله الإنسان بهذه المرحلة من وجوده فيقول ..{أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى } القيامة36-37

والحيوان المنوي الذي تحتوي عليه النطفة هو كائن حي متحرك بكل معنى كلمة الحياة ،فلو كان هذا الحيوان المنوي ميتا لما نشأ عنه جنين ،ومعنى ذلك أنك كنت ذرة حية في صلب أبيك ،وأبيك كان أيضا ذرة حية في ظهر جدك ..وجدك كان ذرة حية في ظهر جد جدك وهكذا يتسلسل الأمر حتى تصل إلي أول إنسان في النشأة البشرية وهو آدم أبو البشر ..

وهذا الكلام ينطوي علي معني عجيب ،وهو أنك كان لك وجود قديم في ظهر أبيك آدم ..وجود حي .. ثم انتقل هذا الوجود عبر كل أجدادك وآباءك حتى وصل لأبيك المباشر الذي كان سببا في ميلادك ..

فآدم أبو البشر كان في ظهره نوح وإبراهيم وإسماعيل وموسي وعيسي ومحمد عليهم الصلاة والسلام وجميع البشر ،وأنت أيضا عزيزي القارئ ..

ومعنى ذلك أنك جاورت هؤلاء الأنبياء والصالحين في ظهر أبوك آدم .. ومن هنا فإن معرفتك بهؤلاء الأنبياء ليست ناشئة عن مجرد السماع وإنما هي مجاورة روحانية قديمة ثابتة في جذور أعماق ذاتك وإن إيمانك بوجود هؤلاء الأنبياء جزء من فطرتك لا يحتاج دليل..لذلك أنت تراهم في داخلك ..وتعرف أنهم طيبين ..ويروي أن النبي ﷺ كان يحكي عن وجوده في ظهور آباءه وأجداده فيقول في حديثه عندما سئله ابن عباس قائلا .. .. سألت رسول الله ﷺ، فقلت .. فداك أبي وأمي ، أين كنت وآدم في الجنة ؟.. قال .. فتبسم ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال ﷺ(كنت في صلبه ، وركب بي السفينة في صلب أبي نوح ، وقذف

بي في صلب أبي إبراهيم ، لم يلتق أبواي على سفاح قط ، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهذبا ، لا تتشعب شعبتان إلاّ كنت في خيرهما) 1

ولذلك يؤكد ابن عباس على ذلك المعنى مرة أخري فيقول ..

(أن النبي ﷺ كانت روحه نورا بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام ، يسبح ذلك النور ، وتسبح الملائكة بتسبيحه ، فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه ، فقال رسول الله ﷺ(فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم ، وجعلني في صلب نوح ، وقذف بي في صلب إبراهيم ، ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة ، والأرحام الطاهرة ،حتى أخرجني من بين أبوي..لم يلتقيا على سفاح قط)2

وفى معنى قوله سبحانه {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} الشعراء..219

يقول النبي ﷺ (من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبياً) 3

(لم يزل الله عز وجل ينقلني من أصلاب طيبة إلى أرحام طاهرة صافياً، مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما) 4

ومعنى ذلك أن كل إنسان كان له وجودا حيا في ظهر أبيه وأجداده يتساوي في ذلك الصالح والطالح والطيب والشرير ولكن الفارق ان الصالح قد تنكشف بصيرته فيتذكر قبسا من أحداث هذا الوجود كما يحدث للأنبياء والأولياء..فإنهم يتذكرون هذا النوع من أنواع الحياة والعجيب أن القرءان دائما يشير إلى أن هناك أشياء هامة يجب أن نتذكرها وأن الفلاح والسعادة متوقفة علي تلك ..الذكرى.. وأن دور النبي والداعية ليس فقط في تعليم أشياء جديدة ولكن في دفع الناس وإمدادهم بمدد رباني يتذكرون به أشياء قديمة كانوا بالفعل يعلمونها وقد نسوها يقول سبحانه ..

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} الواقعة-62، {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ}الأعلى -10

فالإنسان كان جزءا حيا في أبيه يحمل جينات وراثية وصفات من آباءه وأجداده ..وعن هذا الوجود الحي القديم أتحدث وأطرق الباب المغلق ..أنت كنت في ظهر أبيك آدم وهو يتحرك ويتنعم في الجنة،وأنت كنت جزءا حيا في ظهره وهو يأكل من الشجرة وهو يسمع إلى الوسواس من إبليس وهو يهبط إلي الأرض ..

1-ابن كثير .. السيرة النبوية .. باب ذكر نسبه الشريف وطيب أصله المنيف
2- أخرجه القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفي وأخرجه ابن ابي عمر العدني في مسنده عن ابن عباس والسيوطي في الخصائص الكبري
3- رواه ابن عساكر ..
4-أخرجه أبو نعيم

وكذلك أنت كنت موجودا في ظهر كل آباءك وأجدادك بكل تفاصيل الحياة التي مرت عليهم ..
فهل كان لك إدراك ذاتي وأنت ذرة حية في ظهر أباءك وأجدادك ..
وهل كان لك شعور معين بما يجري حولك من هذه الأحداث العظام .. ..
وهل تصورك للجنة التي كان فيها آدم ولحظات هبوطه إلي الأرض ،هو ناشئ عن علم وإيمان فقط..
أم ناشئ عن رؤيا ومشاهدة قديمة معينة لهذه الأحداث بواسطة الحياة التي كانت فيك وقد تركت أثرا وانطباعا مرئيا داخل روحك ..
كما قيل للنبي ﷺ {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} الفيل-1
هذا السؤال الموجه للنبي بكلمة " ألم تر " مع أنه ﷺ في أثناء حادثة الفيل لم يكن قد ولد بعد ..
وقد فسر بعض المفسرون هذه الكلمة " ألم تر " علي أنها "ألم تعلم" أو "ألم تسمع ".والعجيب أنهم يستبعدون المعني الحقيقي للكلمة ويتكلفون في تأويل معناها مع أن الله لو كان يريد أن يقول ألم تسمع أو ألم تعرف لقال ذلك فهو سبحانه لا يحتاج من يضع له بدائل من الألفاظ ثم يقول أن الله كان يقصد ذلك..
{قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }الحجرات-16
فهو سبحانه قال لنبيه "ألم تر " إذا فلنسلم ونؤمن بأنها "ألم تر " وبهذا العلم الذي ذكرناه من وجود حياة لك في ظهر أبيك يسهل لك الإيمان بحدوث هذه الرؤية ،فما بالك بخصائص الأنبياء ،بل فما بالك بخصائص سيد الأنبياء ..
والآن سل نفسك عن تلك الأزمنة السحيقة والأعمار الطويلة التي قضيتها في ظهور الآباء والأجداد من لدن آدم حتى أبيك الحالي هل مرت عليك دون أحداث أو تفاصيل مع أنها كانت حياة بكل ما تحمله معنى كلمة "حياة" وعندما أقول تفاصيل وأحداث فإياك أن تقيسها بأحداث الدنيا التي تمر عليك الآن .. فلكل موجود أحداث تمر عليه تناسب حالته الوجودية مهما دقت وصغرت.. فالخلية الدقيقة التي لا تري بالعين المجردة ،والتي يوجد منها ملايين الخلايا الآن في مساحة من جسمك لا تتعدي السنتيمترات ،هذه الخلية تمر بأحداث جسام وأمور عظيمة وحياة أخري في فترة حياتك تعرف بالأطوار ..
والعجيب أن كل خلية تحتوي علي نواة تعتبر روح الخلية الخاصة بها ،وهذه النواة المتناهية الصغر بداخلها بداخلها شيء وكأنه اللوح المحفوظ الخاص بروح تلك الخلية وهو ما يعرف باسم "الكروموسومات"

وهي التي تحتوي علي الشريط الموجود به الشفرة الوراثية التي تحفظ كل الصفات الوراثية لهذا الكائن الحي وتتنقل الخلية في أطوار عديدة حتي تنقسم ،وتتكاثر ،وتنتج عددا كبيرا من الخلايا الأخري التي تشبهها ، ثم تموت وقد تركت خلفها ذرية خلايا من نوعها تكمل مسيرة حياتها التي هي في الحقيقة حياتك أنت .. فتخيل أن كل ذلك يتم في جسدك وأنت لا تشعر ،وتأمل أن خلية واحدة صغيرة في جلدك تتكاثر وتنقسم وتعيش وتموت وتحمل بداخلها شريط وراثي يحكي كل تاريخ آباءك وأجدادك وصفاتك التي قد ورثتها عنهم وأنت لا تنتبه ،فما بالك بحياتك أنت في ظهر أبيك عندما كنت جزءا حيا في ظهره ..

وهل عندما كنت تنتقل من ظهر كل أب للأب الذي يليه ،هل كان لك شعور بهذا الإنتقال ،وهل كنت تحبه وترغبه ،أم كنت كارها له خائفا منه كعادتك ..؟

أسئلة كثيرة لا يستطيع أحد الإجابة عليها ،ولا تنتظر مني إجابة عليها .. فهي باب مغلق وكهف سحيق مظلم ،لا يفتح بمفاتيح الكلمات وأبواب السطور ،وإنما يفتح بكشف البصائر وسواطع النور ،وكل ما أفعله أني أحرك بداخلك كوامن هذه المعاني وأزيح ستائر الغفلة حتى يصيبك شيئا من التذكرة .. ولكن الذي أجزم به هو أن الله سبحانه كان هو الذي يتولي الأخذ بيدك ونقلك من صلب إنسان إلي إنسان وأنت ما زلت ذرة حية وحيوان منوي ضعيف ،لتدخل في لحظة أشبه بالموت وبالفناء عند الانتقال والقذف ..

هي لحظة محفوفة بالمخاطر أن يكون نصيبك مثل باقي الحيوانات المنوية الأخري التي تموت وتفني قبل أن تفوز بتلقيح البويضة ليستمر وجودها ..

ولكنك تجد نفسك قد دفعت دفعا إلي داخل البويضة وهكذا حتى تجد نفسك في حياة أخري جديدة في ظهر أب آخر جديد ،وهكذا حتى استودعك الله في رحم أمك ،ثم أتيت إلي الدنيا تحمل في ظهرك أيضا ذرات حية لسلسلة بشرية أخري قد تخرج منك ..

شيء عجيب أن تقتضي الحكمة الربانية أن كل تلك التنقلات الطويلة،وكل هذا الوجود الحقيقي القديم يطمس ويمحي وكأنه حلم قد استيقظ صاحبه وحاول تذكره ففشل ..ولكن الإنسان الذي ينسي ما حدث له بالأمس ،وقد نسي تفاصيل زمنا طويلا قضاه قبل ميلاده في عالم الذر ..لابد وأن ينسي أيضا كل تفاصيل هذه الأزمنة التي قضاها في ظهور الآباء والأجداد..وهل سمي الإنسان "إنسان"إلا لأنه كثير النسيان ..

***

تفصيل حياتك في بطن أمك

من أوضح ما تكشفه كلمات الأقدار ،أنه قد كُتب علي الإنسان الهجرة المستمرة ،والترحال من حياة إلي حياة ،ومن دار إلي دار ،ومن طور إلي طور ،حتى يلقي ربه في النهاية ،تلك النهاية التي لا نهاية لها ..

{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} الانشقاق – 6

{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} نوح–14

{إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ }العلق –8 .. {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } يس–83

وبرغم خوف الإنسان دائما من ترحاله وتغيير حاله ،هذا الخوف الناشئ من خشية المجهول القادم عليه،إلا أنه دائما يرحل مقهورا ، ويكتشف بعد ذلك أن رحيله وانتقاله الذي تم قهرا ورغما عنه إلي هذه المرحلة الجديدة كان هو سبب سعادته ،وسرعان ما يألف هذه المرحلة الجديدة ويتمني أن يبقي فيها للأبد وينسي تماما ما كان قبلها،ولكن تتكرر نفس المسألة فتمتد إليه يد الأقدار لتدفعه وتسوقه مرة أخري قائلة له بلسان الحال .. ليس هذا منزلك النهائي ولا مستقرك ما زال أمامك الكثير والرحلة الوجودية ممتدة إلي ما لا نهاية .. ولذلك أشبه حال الجنين حين تقترب لحظة ولادته وانتقاله من بطن أمه إلي الدنيا بحال الإنسان الذي يقترب من الموت وتري جزعه وخوفه من هذه اللحظة الفارقة ،فتراه مرتعدا باكيا جزعا تتزلزل أركانه ، وتضطرب أعضاءه ،يتمنى العودة إلي الحياة والفرار من هذه السكرة المرعبة وذلك الباب الضيق المؤدي إلي القبر الذي سيجذبونه إليه ليدخلوه إلي القعر المظلم ..

ولكنه يموت وتحمله الأيادي وهو لا حول له ولا قوة لتسلمه إلي هذا القبر بالفعل .. وهذا هو حال الطفل تماما حين يوشك علي أن يولد وتمتد الأيادي إليه لتخرجه من بطن أمه، فهو ينزل صارخا حزينا مفزوعا، لأنه يظن أن تلك الأيادي التي أخرجته من بطن أمه وأزعجته وأقلقته من راحته في عالم الرحم ،وراحت تسوقه وتجذبه عبر هذا الممر الضيق المؤلم الذي يعتصره عصرا ،سوف تسوقه إلي الفناء وإلي الهلاك المحقق، ولكنه سرعان ما يكتشف أنه إنما أخرج من البطن وعبر ثقب الفرج الضيق ليجد حياة ثانية واسعة ونشأة أخري لم يكن يعرف عنها شيئا ..

ومن العجيب أن الجنين في بطن أمه لو أخبره أحد بأن هناك حياة أخري سوف يعيشها بعد خروجه من بطن الأم لاعتبر ذلك خيالا وأنها محض توهمات تحتمل الصدق والكذب ،وأنه لا يتمني أن يخرج من بطن أمه أصلا ..تماما مثل من ينكر وجود عالم آخر وحياة أخري بعد الموت ويتمني أن لا يغادر الدنيا أصلا .. ولو أخبروا الجنين أن هناك عالم أوسع وأرحب من عالم الرحم المحشور بين الأحشاء ،لكان ذلك أعجب بالنسبة له ،فهو يري أن الرحم هو أقصي ما يكون في الاتساع فهو لم يشاهد غيره ولم يألف سواه .. لذلك فإن عقله لا يستوعب وجود سماوات وأرض وملك واسع ،فيميل قطعا لإنكار ذلك ، مثل الإنسان الذي يخبروه أن هناك عالم برزخي أوسع بكثير من هذه السماوات والأرض وهو يستبعد ذلك ..

وإذا أخبروا الجنين بأن هناك أغذية وأطعمة متنوعه ما بين ألبان ولحوم وحبوب وفواكه وأسماك وأشياء أخري كثيرة سوف يجدها في الدنيا غير ما يغذيه به الحبل السري ،لما فهم معاني أسماء هذه الأطعمة فضلا عن مذاقها ،ولكان وقعها عليه وقع كلمات غريبة مبهمة لا دخل لها بما يألفه من غذاء ،كما أنه لا يتصور أن هناك مذاقات أخري سوف يجدها وأن هناك وسيلة للغذاء تخالف إمداد الحبل السري ..

فلو قالوا للجنين بأن هناك فتحة سوف تشق في رأسه اسمها " الفم " وسوف ينشأ له فيها قواطع صلبة مثل الحجارة الصخرية صغيرة الحجم وهي " الأسنان "مع وجود قطعة لحم رخوة لا عظم فيها وهي .. اللسان..وهذه الشريحة اللحمية ستتحرك بسرعة جدا وبطريقة آلية وهي من تتكلم وتتذوق وتبلع الطعام كل هذه الأشياء إذا سمعها الجنين لبادر إلي إنكارها علي الفور وقد يسخر منها قائلا..ما هذه الأساطير.. لماذا تشق فتحة في رأسي كي يدخل منها الطعام ،مع أن الحبل السري هو أقرب مباشرة لتوصيل الغذاء لجسمي..وكيف تنبت أجسام صخرية حادة في جسدي اللين الطري ،محال أن تثبت هذه الأجسام، ثم جسم رخو يتحرك بلا عظام ويبلع ويتكلم ويتذوق في نفس الوقت إنه خيال مضحك..وهكذا فإن الجنين لا يتصور أبدا مسألة المضغ والبلع والهضم ،كل ذلك بالنسبة له غيبا مبهما يحتاج إلي إيمان بأشياء لا يألفها العقل بل قد يعدها في هذا الطور من أساطير الأولين ..

والجنين في ذلك مثله مثل الإنسان الذي ينكر الآن وجود ثمار وأغذية في الجنة تخالف في طعومها ومذاقاتها طعوم أغذية الدنيا التي اعتاد عليها ..وأن طريقة هضمها لا يكون بالمعدة والإخراج ولكن بالرشح من

الجسم كرشح المسك ،فيخرج الطعام من الجسد علي هيئة قطرات من العطر ترشح من جلد الإنسان مثل العرق ..

وبالجملة لو كان الأمر محض استناد إلي العقل لكان الجنين أول المنكرين والكافرين ،غير أن هناك جنود أخري من الغيب تتنزل علي هذا الجنين من ملائكة روحانية ومعانٍ ربانية لطيفة ومكاشفات صفائية ، وأحاديث خفية بينه وبين قلب أمه ،تربطه رباطا وثيقا بالغيبيات وبالخالق العظيم ،وبالوجود القديم الذي أتى منه وتشعره بالفطرة من وراء ستار رقيق بما كان وبما سيكون ،يقول النبي ﷺ في حديثه ..

(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلماتٍ..بكَتْبِ رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد) [1]

والعجيب أن هذه الأمور الروحانية التي تحدث للجنين قد تنكرها أنت أيضا الآن إذا كنت من أهل الاستناد إلي العقل فقط وإنكار الروح ..مع أن من ينكر ذلك فهو نفس الجنين الذي استبعد كل ما ذكرناه ثم أتي إلي الدنيا فوجد أن هناك بالفعل عالم آخر أوسع وأرحب من عالم الرحم ،وأن بطن الأم ليس كل شيء،فليست البطن بالنسبة لعمر الإنسان سوي مرحلة صغيرة في رحلة كبيرة وعظيمة متسلسلة الأطوار..

بل وإنك الآن تنسي تماما طعم الغذاء الذي كان يأتيك عبر الحبل السري ،وتفقد نهائيا ذاكرة الأحداث التي حدثت لك وأنت جنين متكور قابع في جوف الرحم ،وإذا سألتك عن يوم واحد بل عن ساعة واحدة من التسعة أشهر التي قضيتها في بطن أمك فلن تجد عندك جملة واحدة أو ذكرى واحدة عن هذه الأحداث وتلك الليالي والشهور التي كانت بالنسبة لك عمرا طويلا..

بل إنها تصبح الآن في منطقه هي الأقرب إلي الأوهام والخيالات والأكاذيب ،ولولا مشاهدة الناس للجنين في البطن ومعاينتهم لمسألة الولادة لأنكر الإنسان وجوده السابق في بطن أمه أصلا ، وكلما كبر الإنسان وزاد حجمه ثم نظر إلي بطن أمه وتخيل أنه كان جالسا في هذا البطن أصابه التعجب والدهشة ..

ولو عرض علي الإنسان الآن أن تجري له عملية جراحية ليعود إلي بطن أمه لرأي أن ذلك محالا ،وأن نتيجة ذلك ستكون هلاكه هو وأمه .. فما كان قديما سبب حياته أصبح الآن سبب هلاكه ..وأن هذا البطن الذي

1- رواه البخاري ومسلم..

كان راحته وواحته ،لا يصلح له الآن ،وأن تلك الأيادي التي كانت تجذبه وتعتصره لتخرجه من ضيق البطن ،كانت بالفعل ترحمه ، وتنقذه من مرحلة لم تعد تصلح له ..

وأن هذه الآلام التي أصابته أثناء الولادة ،لم تكن آلام دائمة ،ولا عذابات انتقام وإنما كانت مرحلة مطلوبة لما يعقب ذلك من الراحة والهناء ،وكذلك كل بلاء يصيب الإنسان في الدنيا ما هو إلا مرحلة يأخذ الله بها الإنسان من الضيق إلي الفرج ،مهما كان حجم هذا البلاء ، تماما كما ولدت وجئت إلي هذه الدنيا ثم ألفتها وعشقتها ،ثم أصابك فيها أصناف المتاعب والأوجاع ،فلتكن ثقتك ويقينك أنه دائما يقدم بك علي الخير، وهذا هو سر هذه المرحلة الرابعة التي سنذهب إليها برحمة من الله وتوفيقه وهى الحياة الدنيا ..

***

أطوار الحياة الدنيا

شمس ذهبية تسطع كل صباح علي المروج الخضراء السندسية ..وبيوت الطين التي يسكنها الفلاحون، وتشرق بنورها الذهبي علي الخيام البدوية المبثوثة في الصحاري والوديان ،وتطل بدفئها وتتسلل بأشعتها إلي الشقق الموجودة في الأبراج والعمارات، حيث تمرح الأشعة النورانية علي النوافذ وفوق الأسطح فتشتعل اللوحة جمالا ،وتضحك الأرض ابتهاجا ،وتنشرح صدور البشر بهذا اليوم الجديد الذي يحمل الأمل والنور ..

قمر فضي يلمع في السماء المظلمة ،وحوله تاج من النجوم التي يحلو لها أن تبرق للناظرين ..وتمسح بوميض حنون علي رؤوس السهاري والنائمين..وليل يضم في أحضانه المتعبين كي يناموا ويستريحوا ،ويستر العاشقين الذين اطمئنوا إلي ظلمته فراحوا يستأنسون بدفئ اللقاء ..النور والهواء والماء والتراب هم الحياة في أرقي مظاهرها الدنيوية ..

ثمرة تهتز .. ونهر يجري .. ورجل يحمل طفلا باسما ينظر لأعلي نحو العصفور الذي غرد وانطلق ..

لا ريب أن الحياة جميلة وأن الدنيا حلوة خضرة ،كما وصفها النبي محمد ﷺ برغم كل ما فيها من بلاءات وأوجاع .. لقد جمل الله الدنيا بألوان وبدائع لا تنتهي ولا تحصر ،وصب عليها النعم صبا ..

{ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } ابراهيم-34

يولد الإنسان محمولا علي أكف النعمة الإلهية ،فيجد أول ما يستقبله في الدنيا ابتسامة أبيه وثدي أمه ،ثم يعشق طعم الحليب ..لقد جعل الله السعادة هي القاعدة والحزن هو الاستثناء..جعل الأعم والأكثر من الأطفال هم من يتقلبون في الحنان بين يدي والديهم .. واليتيم هو الحالة الاستثنائية في كل حي أو قرية .. ومن الأيتام تصنع العظماء ..

مرحلة الطفولة هي مرحلة الضحك بلا انقطاع ..إن الرضا الإلهي تستطيع أن تراه مسكوبا علي وجوه الأطفال .. برغم الفقر ،وبرغم اليتم ،وبرغم المخاطر يضحكون .. ملئ أفواههم يضحكون ..

حقا إذا استطاع الإنسان أن يحتفظ بطفولته ،احتفظ بسعادته الدائمة وبالرضا الإلهي المنزل عليه ..

ولكن الطفل حين يبلغ صباه يتمني أن يكبر وأن تدور عجلة الأيام بسرعة ليدخل في عالم الكبار ليمارس كل ما يمارسوه في الدنيا ،ويأخذ مكانه في المجالس بين الرجال.. فيشعر أنه قد شبع من الطفولة وأنه قد أصبح يستحي منها ..

وعندها يدفع بيد الزمن إلي تطور جديد وهو طور الصبوة والشباب وتصحبه النعمة الإلهية في هذه المرحلة ليمتلأ جسده بالقوة وعقله بالحماس ،ويعيش أبهج مراحل العمر فيعرف معني الصداقة ونعيم الصحبة مع الرفقاء ،وتشرق فيه شمس أفكاره ومعتقداته وآراءه الخاصة التي ينشط من أجلها في إقناع الآخرين..

وتتفتح حواسه ومشاعره ليتذوق متعة الالتقاء بالمرأة ،وتدرك المرأة حنينا نحو الرجل ..فتنبض القلوب بالحب ،وتخالج الوجدان مشاعر كثيرة تضفي على الإنسان سعادة ونشوة ..

فما أجمل هذا الكأس الذي يصبه الله في قلب الفتاة عندما تشعر أن هناك من اختارها دون غيرها وطرق بابها لتكون شريكة عمره وزوجته الحبيبة ..كما أن الشاب يشعر بمثل هذه الغبطة، عندما يجد فتاة تعجب به وتتمناه زوجا لها .. إنه شعور التفرد وتكريم الذات والتميز عن الغير ..

إن شعورك بتميزك عن غيرك في عين من يحبك ،هو شعور تدللك به السماء حيث ألقي الله محبتك في قلب من القلوب وجعله يؤثرك علي من سواك ..

ثم يجمل الله هذا اللقاء بين الزوجين بلذة لا تعادلها لذة أرضية ويبسط بينهم بساطا من المودة والرحمة .. ويعظم لذتهم بأن ينتج منهم مولودا جديدا يكمل الرحلة الوجودية للإنسان ..

وتدور عجلة الزمن مسرعة فتقذف بالإنسان في طور جديد وهو طور الرجولة وتتوالي عليه النعم الإلهية حيث يبلغ الإنسان أشده ،وتعلو كفة رشده وتهدأ كفة حماسته ليدخل في مرحلة من الاعتدال العقلي ..

فينظر للدنيا بعين تودع طيش الشباب ونزق المراهقة .. ويصبح مكتملا في كل أركان قواه النفسية والجسمية ،وملكاته الفكرية يقول سبحانه ..{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ } الأحقاف-15

وهو في هذه المرحلة الأب الحنون مع أنه ما زال أيضا الابن المدلل لأبوين قد طعنا في السن، وهو الزوج الراعي لأسرته وصاحب العمل الذي ينتج وينفع البشرية ..

وهو الناضج في الفكر وفي الموهبة حيث يتجلي الإبداع مرتقيا ذروته في هذا العمر من حياة الإنسان ،فتجد الرسام في لوحاته أصبح يخاطب بريشته العمق والوجدان قبل الأعين ،والأديب قد غدا أكثر حنكة بمواقع التأثير علي القارئ ،فتصبح لغته ومفرداته أكثر حرارة وأشد تبيانا،والموسيقار قد اختمرت في داخله الأنغام والألحان الشجية فيؤلف من المقامات الموسيقية نغما ترتقي به الأذواق وتطرب له الأسماع .. وهكذا كل صاحب موهبة يفاض عليه ما يجعله أكثر نفعا وإمتاعا للناس ..

ثم تقوم عجلة الزمن بحركة سريعة أشبه بـ..الخدعة الخفية.. حيث تمر بسرعة جنونية لتقذف بالرجل إلي طور جديد وهو طور الكهولة، ليجد نفسه فجأة شيخا كبيرا يعرف بالرجل العجوز .. مع أنه كان بالأمس القريب ذلك الطفل الذي يلهو بين أقرانه، والعجيب أن تلك المرحلة وهي ما بين الرجولة والكهولة من أسرع المراحل التي تمر كالبرق بدون تأني ..

فإنك إذا تخيلت أيامك في زمن طفولتك ،شعرت بأن هذه الأيام كانت طويلة والأحداث فيها كثيرة جدا وأن العمر كان يمضي علي مهل ،ولكن ما بين الرجولة والكهولة قد دار "ترس العمر" بسرعة وكأن هناك أحدا دفعه بيده دفعة قوية لم تجعلك تفيق إلا وأنت شيخ كبير..ولكن حتي في هذه المرحلة الحرجة لا تتخلي عنك النعمة الإلهية بل تواليك بالإمداد والعطاء المتدفق حيث يصبح عقلك أكثر خبرة بتجارب الزمان والأيام ،ويمتلأ قلبك بالرحمة فتتشبع كل آراءك بالحكمة التي ترشد الخلق إلي السلام والنجاة من كوارث التصادم وعواقب البغضاء ،وتري نتيجة ذلك في التوقير الفطري الذي يضعه الخالق في قلوب الناس نحو الرجل الطاعن في السن ،فتراهم يبجلون مكانته ،ويقدسون رأيه وحكمته ،كما روي عن النبي ﷺ في حديثه ..(الشيخ في قومه كالنبي في أمته)[1]

وما ذلك إلا لأن الناس بالفطرة تدرك أن هذا الشيخ العجوز قد عارك الحياة وهصرته هصرا ، فأصبح خبيرا بكل شيء ،وصار يحمل في جعبته تاريخا عميقا وحكمة قد أهدتها له أيدي الأيام ،ومن أجمل النعم التي تتوالي علي الإنسان في هذه المرحلة هي تلك المشاعر الودودة التي تنشأ بين الجد وأحفاده ..

فمن العجيب أنك تجد الحفيد يعشق الجد عشقا يكاد يكون أكبر من محبته لأبويه ..وذلك لما يراه من الحنان

1- رواه ابن حبان والدارقطنى والديلمى في مسنده

المضاعف من هذا الجد الهرم ،فقد يغضب الأبوين علي طفلهما وقد يضرباه ،ولكن الجد لا يفعل من ذلك شيئا بل سرعان ما تراه يخبئ الأطفال خلفه ويجادل أبويهم مدافعا عنهم ،حتى لو اضطر لتعنيف الأبوين أنفسهما ..ومن أعجب صنائع الله بالإنسان في هذه الفترة ،أنه عندما يبدأ جسد الشيخ العجوز في الضعف ،تشتد روحه في القوة ،فيصبح أكثر تذوقا للأمور الروحانية ويميل بكليته للغيبيات والرقائق المعنوية ،بل إن تذوقه للمعاني الروحية يكاد يكون مثل تذوق الطفل لها ،فوقع كلمة ..الجنة ..علي الطفل بما تحمله من إحساس ممتع لا يوصف ،هو تماما مثل وقع كلمة ..الجنة.. علي العجوز ..وذلك لأن في مرحلة الشباب والرجولة تكون الأمور المادية والكثافة الشهوانية أطغي علي قلب الإنسان ،فتتواري المعاني الروحية ويقل طعم مذاقها ..وأحيانا يكون منعدما ،وبالطبع هنا إني أخاطبك علي الغالب الأعم من البشر وليس علي النسخ المنفردة من الأنبياء والصديقين والصالحين وما إلي ذلك ..فهؤلاء لا يقاسوا ببقية البشر فهم خاصة، بل خاصة الخاصة الذين ينصب لهم ميزانا آخر في الأحوال والمقامات لا يتسع له حديثنا الآن ،وليس هو غرضنا في هذا البيان..

وتستمر أيام الإنسان في هذه المرحلة تمر هزيلة شاحبة غير أنها إلي جانب ذلك سريعة كوميض البرق ليصبح شيخا عجوزا مريضا..ولو افترضنا بأن هناك من يبلغ أرذل العمر ويدخل في مرحلة الكبر والهرم ولكنه مع ذلك لا يزال بصحة جيدة ،فإنك إذا سألت هذا الإنسان عن حاله فإنك تجد لديه إجابة واحدة يرددها كل المعمرين في الأرض حيث يقول لك ..لقد شبعت من الدنيا.. عندما يخالط الإنسان ذلك الشعور بأنه قد شبع من الدنيا ،وذلك عند تخرق ثوب الجسد والملل من شهوات الدنيا المكررة وأنه قد جرب كل شيء فيها ولم يعد هناك جديد ..

وتعتريه تلك اللحظة التي تبعث بداخله الشجن عندما يتذكر ماضيه وطفولته وذكرياته القديمة ،وفي هذه الذكريات سر يجب أن أنبه عليه ،وهو أنه لولا الذكريات لعاش الإنسان وعمر دهورا طويلة وذلك لأن عقل الإنسان له خاصية تميزه عن باقي المخلوقات الأرضية وهي أنه يستطيع أن يحتفظ بالكثير من الذكريات في خزنة عالم الخيال ،حتى أنه قد يحتفظ بذكريات راسخة منذ زمن الطفولة مهما بلغ من العمر أرذله مع أن تلك الذكريات قد تكون غير ذي أهمية من أحداث أخري عظام وجسام قد مرت في حياته..

ولكن العقل قد اختار تلك الذكريات بعينها وقام بتخزينها في خزنة عالم الخيال، وذلك لأن هذه الذكريات هي في حقيقتها تجليات إلهية تمتع الروح وتجذبها للعلويات دونا عن باقي الأحداث ..

وكلما عاش الإنسان فإن ذكرياته تكثر ،وتزيد،وتزيد ،حتى تضيق بها حوصلة عالم الخيال في عقله ولا يعد فيها متسعا لتحمل تلك التجليات التي يستحضرها بين الحين والآخر علي هيئة الذكري ويريد أن ينطلق كالطائر الحبيس ليعيش مرة ثانية في المعاني التي تحملها تلك الذكريات ..

فيشعر بحنينا لشيء مخبوء في ذاته يقول له بأنه لم يعد هناك أجمل مما مضي ،وأن الدنيا بالنسبة له أصبحت كطريق صغير قطعه ذهابا وإيابا أكثر من مرة، ولابد أن يكون هناك مخرج من هذا الطريق الممل لمكان آخر أكثر اتساعا وأكثر إشراقا..إن التشوق لمعارف جديدة ،والوقوف علي كنه الحقائق وأسرار المخبوءات، والفصل بين القضايا التي يعجز العقل عن حلها، تحتاج حتما الرجوع إلي قاضٍ أكبر وأعظم ،يتسع علمه وعدله لكل صغيرة وكبيرة .. هذا الظمأ الشديد للحقائق لا ترويه سوي هذه الآية ..

{ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } آل عمران -55

وهذا الشوق القاتل للذكري تجد أن القرءان من أوله لآخره ينبه علي أنه من صفات المؤمنين ويلمح بأن في ..الذكري.. سر دون أن يشير أو يحدد ما يجب أن يتذكره الإنسان ..

لأن الذكريات في حقيقتها تجليات وليست أحداث ..

{سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ} الأعلى-10 ، { فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} الواقعة-62

فإن الدنيا تأتي في مرحلة وتصبح بالنسبة للإنسان كالعلبة المغلقة التي قد عرف كل ما فيها ونقض كل أركانها،ولست أقصد بذلك أن المعارف والعلوم التي في الدنيا متناهية ، بل إن علم واحد من هذه العلوم الأرضية قد يفني فيه عمر الإنسان ولم يحصل عُشره أو عُشر عشره ،ولكني أتكلم عن مراد الإنسان من هذه العلوم والتجارب ومدي اتساع حوصلته لها ..

ولذلك فإنه حتى من يموت شابا أو في حادثة مثلا ،غالبا ما تجده من النوع الذكي الذي كان كثير التجارب والخبرة وعقله بلا شطآن.. وأنه بالفعل قد خاض في حياته القصيرة أشياء عجيبة ربما من عاش طويلا وعمر دهرا لم يكن يدري منها شيئا،فيوم من أيام هذا المتوفي مبكرا بألف يوم من أيام المعمر طويلا ..

وأحيانا تجده علي قدر من الصفاء والطيبة ونقاء القلب بحيث يبدو كأنه غريب عن هذا العالم منذ بدايته..

وأن مكانه الطبيعي ليس بين هؤلاء الخبثاء والأشرار والتعبير الذي يقوله الناس الطيبين من أهل الفطرة عن الطفل الذي يتوفي صغيرا قائلين أنه "ابن موت" هذا التعبير له قدر كبير من العمق والتحقيق ..
ولكل حالة يقتنصها الموت مبكرا حكمة قدرية، فهناك من يخطفه الموت ليتربي ولده تربية اليتم التي تصنع من معاناته بطلا عظيما ،وهناك من تقتنصه سهام القدر ليرتحل كريما معززا موقرا ،تبكي عليه العيون والقلوب قبل أن تصيبه ورطة تهينه وتحقره في أعين الناس ،وهناك من تقرعه مقارع الموت لتقي البشرية من شره وطغيانه ..
وليس غرضنا الآن أن نستقصي كل حالات من يغادر الدنيا،ولكننا نتكلم عن القاعدة من البشر وليس الاستثناء ،نتكلم عن من يكمل دورة حياته الطبيعية وأطواره المتسلسلة حتي يصل إلي طور الهرم والعجز حيث يتبدل جسده القوي الفتي .. وتخبو صحته شيئا فشيئا .. ثم تضايقه وتزعجه تلك الآلام التي لا تكف عنه ولا تمل من طرقها علي جسده الضعيف .. فيتمني بداخله أن ينتقل إلي حال آخر .. وطور جديد .. ومتعة جديدة ويستشعر أن البقاء في الدنيا بهذه الحالة الشجنية المعذبة يبدو محالا .. ولكنه يخاف الموت ويكره ازدياد الآلام ويرتعد خوفا من الظلام المجهول داخل القبر .. فتتشبث غريزته بحب البقاء .. وتمسك بقية آماله الخادعة بأقدامه كي يظل حيا علي ظهر الأرض حتي يحقق بقية أحلامه التي لن تتحقق .. وفي هذا المقام تتفاوت الدرجات بين الناس كما بين السموات والأرض .. فأما المؤمن الزاهد فهو يتمني لقاء ربه ..ويري الموت ما هو إلا قنطرة يعبرها وسوف توصله إلي محبوبه ..
وأما المؤمن الراغب في الدنيا فيشعر بالألم والجزع والحزن لفراق الدنيا التي قد ألفها، وبالخوف من الله أمام كثرة ذنوبه ،ولكن يبقي لديه أمل في رحمة الله بقدر درجة إيمانه ،وأما المنافق فهو في حيرة وفزع مرعب من هذه اللحظة التي ستكشف حقيقته وتلقي به إلي حتف ليس له فيه أي أمل لسعادة ..
وأما الملحد فهو يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يدفع عن نفسه الموت لأنه يعتقد أنه مقدم علي العدم والفناء والسكن في بطن الدود إلي الأبد ،وكلما زادت مقاومته للموت كلما زادت آلامه وسكراته فالشوكة الموضوعة فوق سطح اليد يسهل أخذها ،وأما الشوكة المغروسة في الجلد واللحم تنزع بصعوبة ،والطفل المستسلم يسهل حمله ،بينما الطفل المتشبث بالأريكة يصرخ ألما عندما تنزعه ،وكلما قاوم وتشبث بها أكثر وغرس أظافره في ستائرها كلما تكسرت أظافره وازدادت معاناته وغارت جراحه ،وكذلك حال المحتضر

كلما تشبث بالبقاء أكثر كلما تزايد عليه ألم النزع وسكرة الاحتضار ،وقد أخبرنا النبي ﷺ أن روح المؤمن تخرج سهلة يسيرة وأنها تسل من جسده كما تسل الشعرة من العجين وشبهها في موضع آخر بقطرة الماء التي تسيل من في السقاء يعنى من فم القربة ..

وأما الملحد فعند لحظة الاحتضار تعصف به عواصف الحيرة وتقذفه أمواج الظنون ،فيكون احتمال وجود بالله بالنسبة له احتمالا مرعبا مخيفا حيث أنه سيواجه هذا الإله الذي طالما أنكره وسبه وكفر به ،وأما احتمال عدم وجود الإله فهو أسوء بالنسبة له ،لأنه سيقضي عليه بانتهاء قصته الوجودية إلي الأبد،حيث يتحول إلي ترابا في حفرة ثم لا شيء .. فالملحد معذب في الحالتين ،إلا إذا تداركه نفس رحماني ختم له بالإيمان ..

وهكذا يتقلب الإنسان في تلك اللحظة الفارقة ألف تقلب حسب درجته ومقامه عند الله ،ولذلك شرع أن يلقن الناس كلمة ..لا إله إلا الله .. للمحتضر وهو في سكرات الموت..فقد تصادف الكلمة قلبا متلهفا يربط عليها فيختم له بخاتمة السعادة ..

وذلك لأن الإنسان عند لحظة الاحتضار يكون كالجنين تماما عند لحظة الولادة ، فكما يكره الجنين مغادرة رحم الأم وينزل جزعا صارخا ،كذلك يكره المحتضر مفارقة الدنيا ،ويكون جزعا خائفا حتى تتنزل عليه جنود الله وتقلقل روحه وتصعد بها لتنقله من الدنيا رغما عنه إلي حياة أخري ،وطور جديد، هو طور حياة البرزخ ..

وكأن الموت في حقيقته هو رسالة يبعث بها العبد إلي ربه ،يتوسل فيها إليه أن ينقذه من آلام جسده ومتاعب الدنيا التي أصبحت فوق قدرة الاحتمال ..

فتخيل أنه لو لم يكن هناك موت وظل المريض يتألم تلك الآلام المبرحة والتي يعرفها من يعانيها حيث يشعر أن المناشير تنشر لحمه وعظمه وتقطع جسده نصفين ،ويعاني من ضربات الوجع التي تصعقه صعقا كالكهرباء فيغدو كالخرقة البالية لا يستطيع أن يفعل شيء سوي التأوه، وأحيانا حتى التأوه لا يقدر عليه ..

وكما أننا نعتبر أن من بطولات الطفل الصغير أنه يستطيع التحكم في بوله فلا يتبول علي نفسه ..كذلك فإن الإنسان في مرحلة الهرم والمرض ،تعتبر من أقوي بطولاته أنه يتحكم في مثانته فلا يتبول علي نفسه..

وكما نعتبر الطفل ناجحا إذا تسند علي الحائط واستطاع المشي بصعوبة ،كذلك فإن المريض الهرم ،يعد إنجازا له إذا استطاع المشي متسندا علي الحائط أو متوكأ علي عصا ..

وبالجملة فإن الإنسان في هذه المرحلة يرتد إلي مرحلة الضعف الطفولي بكل تفاصيله ،لا يقدر علي المشي ولا يقدر علي الكلام ولا يقدر علي الأكل ،ولا يقدر على التحكم في بوله وبرازه و..ريالته..

{ومِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا } النحل -70

{اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً }الروم =54

فإن حالته هذه تكون بمثابة رسالة إلي الله يتوسل إليه فيها أن ينقله من هذه المرحلة الميئوس منها تماما.. حيث يعلن الطبيب عجزه ..ويقف الأقارب باكين لا يستطيعون فعل شيء ..إن الموت هنا حقا راحة له حيث يتدخل الله برحمته ويأخذ بيد عبده ،كما الأم عندما تأخذ بيد طفلها الصغير وتعبر به من الطريق الخطر للطريق الآمن ،وهنا يحدث شيئا عجيبا من أمور اللطف الإلهي وهو أن المحتضر وهو في أشد لحظات النهاية عند قرب احتضاره وخروج روحه تسمعه ينادي الأموات ،ويكلم أمه، وأباه ،وأقاربه الموتي ،وكأنهم ينادون عليه كي يرحل إليهم في العالم الآخر ..

وهذا الأمر متكرر كثير جدا جدا بحيث لا يحصر فهو الغالب الأعم عند المحتضرين ،يشاهده أكثر الناس وهو دليل علي أن الله يريد أن يهون علي عبده هذه اللحظة الصعبة عند مفارقة الدنيا فيأذن لأرواح أهله وأحبابه الذين سبقوه في الموت بالحضور عنده ،ومؤانسته ،فيبشرونه ،ويطمأنوه ،ويتعجلوا قدومه اليهم .. فيعلم أن له في هذا العالم الآخر الجديد من يحبه وينتظره ويشتاق إليه ،فيأنس بذلك ،ولذلك تري أحيانا الرجل الهرم العجوز وهو علي فراش الموت يخاطب أمه وأباه بسعادة وفرح وكأنه قد ارتد طفلا صغيرا بعد كل هذا العمر ..وكأنهما شاخصان أمامه يراهما رأي العين ..

وهناك من يخبر المحيطين به قبل موته بأسابيع وأحيانا بشهور بأنه قدر رأي أحد أبويه في منامه يخبره بقرب انتهاء أجله ،ثم يحدث ذلك بالفعل مع أنه قد يكون بصحة جيدة وليس به أي اعتلال يدل علي قرب الموت مما يدل على أن هذا الأمر ليس مصادفة أو وهما يصيب المحتضر وإنما هو حقيقة مشاهدة مجربة..

وهناك من الصالحين من تحضره في هذه اللحظة روحانية الأنبياء،والأولياء، فيكونوا مبشرين له مساعدين إياه في الخروج من الدنيا إلي العالم الآخر ..

كل ذلك وأقارب الميت الجالسين بجواره والمتحلقين حوله علي سريره لا يستطيعون فهم حقيقة ما يحدث ولا يدركون تجلي هذه الروحانيات رغم أنها قريبة منهم جدا ولا فاصل بينهم سوي شبر أو أقل..

وكل هذه الأسرار من باب قوله سبحانه في القرآن المجيد الكريم ..{فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـكِن لاَّ تُبْصِرُونَ } الواقعة83-53

حيث يأخذ الله الإنسان من هذه الحياة التي كتبت نهاية فصولها وأصبحت رواية قرأت جميع صفحاتها، وطويت جلدتها ،وينقله إلي حياة أخري ، بكر ، جديدة ، واسعة ، تسمي ..حياة البرزخ ..

***

حياة البرزخ

والحق أن النعمة الإلهية لا تتخلي عن الإنسان أبدا منذ بداية نشأته إلي الغاية،وفي أي طور من أطوار وجوده حتى عند الموت ،حينما تتزلزل أركان الإنسان وتنهد جوانبه ،فترتعد مفاصله وتبرد أعضاءه وينعقد لسانه وتتحشرج أنفاسه ويشعر بأن روحه قد بلغت الحلقوم ،وأنه مقبل علي تلك اللحظة التي ستنعدم فيها حياته ..لحظة ..الموت .. وأنه سيفني لا محالة، وبالفعل يفني ..

ولكن العجيب أن الإنسان بعد لحظة سكرات الموت ومفارقة الحياة يجد أن الله قد أعد له المفاجأة الكبري، وهي أنه ما زال موجودا ،وأنه لم يتحول إلي عدم ..بل يفيق ليجد نفسه مقبلا علي رحلة وجودية جديدة من نوع آخر ..

إنه مقبل علي سبح روحي وانطلاق بلا حدود ولا حواجز..ووداع لهموم الجسد واستراحة منه ،وهذه الرحلة هي ..رحلة الروح ..وقد تحررت من قيد هذا الجسد الترابي ،وخرجت طائرة تحلق منطلقة من سجن اللحم ،والعظم ،والجلد ..

فإن كل اللطائف المعنوية الستة الموجودة فيك من قلب ..وروح ..ونفس ..وسر ..وخفي.. وأخفي ..

هي في حقيقتها مصابيح من النور قد تم إخفاءها في صندوق معتم وهو جسدك .. تنتظر تلك اللحظة التي يفتح فيها الصندوق حتي تشع بنورها وتلمع في الأفق ..

كل المواهب الروحية من مشاعر،ووجدان ،وتأمل ،وبصيرة، وإرادة ،وهمة،كلها **"فتافيت من السكر"** وضعت في كيس من الجلد واللحم وأحكم إغلاقه ..طيور رقيقة تم حبسها في قفص مصنوع من خشب العظم وسلك الأعصاب ..

فالقفص الصدري هو في حقيقته قفص حديدي ،محبوس فيه القلب سجين بين قضبان أضلاعه ،ينتظر تلك اللحظة التي يفر فيها حرا وينطلق.. والأنف محبوس فيها النفَس ،وهو حبل النفْس الممتد بين الشهيق والزفير ، فإذا انقطع حبل النفْس وخرج النفَس الأخير ،انطلقت النفْس وفرت إلى عالمها الأصلي ..

والبصيرة محبوسة خلف زجاج العين مقيدة بزنازين البصر..وهذه الزنازين هي تلك المشاهد الضيقة التي تراها العين وتظل محجوبة بها وتعطل عين البصيرة عن كشف الحقائق المطلقة ..فإذا هلك الجسد وانهار

السجن ،وكسر الزجاج ،خرجت الروح وتبعها البصر.. وتعطلت العين ليتحول البصر إلى بصيرة تنطلق مسرعة لتلحق بروحها ..

والعقل مسجون في سجن الدماغ ،معتقل بين خلايا المخ وتجاويف القلب ، فإذا تخلص العقل من معتقل اللحم، والدم ،وتحرر من جدران الدماغ ،وشرايين القلب الصنوبري ،فر هاربا مسرعا ليلتحق بالروح وينضم إليها ..

والإرادة ..والمشيئة ..مقيدة في أعمدة الأيدي والأرجل ،فأنت لا تمشي إلا إذا أردت ،ولا تحرك يدك إلا إذا سبقت هذه الحركة شيء بداخلك يسمي إرادة، ولكنك كم من مرة أردت أن تطير ،أن ترتفع ،تحلق ،لكن يداك ورجلاك لا يقدران علي تحقيق إرادتك ،هما أضعف من ذلك ..

أنت تريد أن تغير الكون ..تنصر المظلومين ..تعين الضعفاء ..تردع الجبابرة .. لكن جوارحك عاجزة عن تحقيق ما تشاء ..

تريد النجاح ،والسعادة ، وأن تمد يدك نحو السماء لتغوص بأصابعك في السحاب وتقبض منه قبضة بكفك لتكتشف ملمسه ..ولكنك في النهاية قد لا تنجح ،ولا تسعد ،ولا تمد يدك للسحاب فيدك أقصر من إرادتك ،وأضعف من مشيئتك ،وهي لا تطول السحاب ،ولا تصل إلي السماء ،هى تلبي إرادتك فقط إذا أردت أن تهرش في قفاك ،أو تمسح مخاطك ، واحمد ربك علي ذلك ..ومسكينة تلك الإرادة العظيمة التي لا منفذ لها سوي الأيدي والأرجل ..

أخيرا لقد تخلصت من قيد الأيدي والأرجل..انطلقت مشيئتك تطير..وتحلق..التحمت بالروح..روحك الآن ما تشاءه يتحقق..ما تشتهيه يكون ..لأن مالك الملك كله قد وعد بذلك ..

{ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } ق-35

{ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ.. ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ } الزمر34

كل مواهبك الروحية قد تحررت من سجن الدنيا ..خرجت من صندوق الجسد..قفزت من أسوار الجوارح.. لقد أزاحت روحك حجب الشهوة ،والانتظار، والخواطر ،والغير، والسوى ..

كشفت غطاء الجسد، والجوع ،والعطش ،والغرور ، والكبر الزائف، ووهم الأنا والأنانية .. لقد تحررت .. نالت الحرية .. الحرية الحقيقية ..

إنه نوع من التحرر الرائع المريح الحالم ،بغض النظر عن المصير أو الجزاء عن العمل ،فإن مجرد استمرار الوجود الإنساني هو نعمة أخري من الله علي عباده ،حتى وإن كان هناك من سيتمني الفناء نتيجة ذنوبه وإجرامه ولكنه سيعترف لله بهذه النعمة الجديدة ،نعمة الحياة بعد الموت مع اعترافه بذنوبه { قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ،فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ } غافر-11

ومن ينكر أن هناك شيئ بعد الموت اسمه حياة البرزخ أقول له شيئا واحدا ..كيف تنكر أمرا يحدث معك أنت شخصيا كل يوم ،أنت تدخل البرزخ يوميا ولا تشعر ..تزوره كل يوم، وتحل به كضيف كريم ..

إن أهل البرزخ يستضيفونك كل ليلة عندهم معززا مكرما ،بل وتأخذ واجب ضيافتك من شاي وقهوة وأحيانا ..طعام دسم.. فأنت عندما تنام ،تخمد جميع حواسك ،فعيناك مغمضة لا تبصر ،ويداك جامدة لا تبطش ،وقدماك هامدة لا تمشي ،وأذناك في صمم لا تسمع ،ولسانك

الفهرس

***

من أعمال المؤلف

- **العالم الذي لن يكون (رواية)**
- **ديوان الأرواح المجندة (شعر)**
- **الساجد تحت عرش الرحمن**
- **الجذبة الإلهية**
- **من فضائل وسير الفاروق**
- **ما هو المدد**
- **صحابة تعرفهم لأول مرة**
- **العائد من الموت**
- **قطع غيار إنسان (رواية)**
- **السوهاجي وسر التابوت (رواية)**
- **عشرون قصة من بطولات الصحابة**
- **القول الصريح**

❋ كرامات الخطاب

❋ إشارات عاشق

❋ أنشودة الإنسان الكامل (شعر)

❋ الصحابي خالد ابن سعيد

❋ الأدب الروحي –دراسة نقدية في شعر ابن الفارض–

❋ أنجولي –قصتك أنت – (رواية)

❋❋❋